الفصل الثالث

الأسئلة

السؤال الأول: (من مسلم أمريكى طالب فى المرحلة الثانوية).

«لقد واجهت صعوبات مع بعض روايات القرآن. يبدو البعض منها متعارضًا مع لعلم أو مع التاريخ. وقد أدى ذلك فى الحقيقة إلى أن امتلكتنى الشكوك. نصحنى أبواى بالتحدث إلى (شيخ) اعتقدوا أنه قد يخرجنى من شكوكى هذه، لكن ذلك لم يعد بالنفع. وأخبرنى الشيخ فى نهاية الأمر بأن استيلاء هذه الشكوك على يعنى (الكفر)، وأن علىّ أن ألقى بهذه الشكوك بعيدًا عن عقلى، وكلما حاولت ذلك جاهدًا لم يمكننى التوقف عن التفكير بها. هل صادفتك مشاكل مشابهة عندما قرأت القرآن، وإذا كان الأمر كذلك فكيف تغلبت عليها؟»

***

يتوجب علىّ أن أقر بأننى خلال قراءتى الأولى للقرآن لم ألق بالاً أو أهتم بتاريخية قصص القرآن؛ لأن اهتمامى الرئيسى انصب على ما سوف يخبرنى به حول الهدف من الحياة. كان اقترابى من القصص القرآنى - وفى الحقيقة اقترابى من مجمل القرآن - قد حددته خبرتى بالآيات من الثلاثين إلى التاسعة والثلاثين من سورة البقرة. وقد بدا بديهيًا من واقع خلفيتى ومنظورى الإدراكى أن القرآن لم يكن يعيد رواية واحدة من أكثر القصص الإنسانية هيمنة وإثارة من أجل تلبية حب الاطّلاع لدى القارئ حول أصل الجنس البشرى، ولكن لاستخدامها كأداة غاية فى الفاعلية من أجل تصحيح واحد من أكبر موضوعات التاريخ التى أسىء فهمها، وما أسرنى كان هو المعانى المتضمنة فى هذه النسخة من الرواية المتعلقة بأول زوجين من البشر. وشعرت بأن خلف هذا الوحى بتلك الرواية تقبع رؤية فكرية عميقة عن الهدف من الحياة، كما أن كل كلمة من كلمات هذا النص تدور حول هذه الرؤية. وعقدت عزمى على الفوز بلمحة خاطفة من هذه الرؤية عن طريق البحث داخل كل آية عن أدلة تتعلق بها. وهكذا فعندما قرأت القصص انصب تركيزى على ما قد

يخبرنى به عن الوجود الإنسانى، ولم تمثل قضية الواقعية التاريخية لهذه القصص أهمية بالنسبة لى.

عقب تحولى إلى الإسلام زاد اهتمامى بهذه القضية. فمن ناحية، اكتشفت أن معظم المسلمين يؤمنون بأن كل قصص القرآن تمثل روايات واقعية للأحداث الماضية، ومن جانب آخر، وجدت أن العديد من مفسرى القرآن شعروا بأن بعض هذه القصص تتضمن قصصًا رمزية وأخرى ذات مغزى أخلاقى على الرغم من اختلافهم على تحديد ذلك. وبينما كنت أنا أكثر ميلاً إلى الرأى الثانى، فما زلت أشعر بالحاجة إلى دراسة قصص القرآن بمزيد من الحذر، وبكل ما أملك من القدرة فى محاولة لتحديد أىٍّ منها الذى يقدم بوصفه تاريخًا.

ومثلما ذكرت سلفًا فليس القرآن بتاريخ ولا هو بسيرة شخصية. توجد بعض قصص موزعة داخل القرآن لشخصيات كانت معروفة بوضوح لعرب القرن السابع، ومن بينها شخصيات الكتاب المقدس، لكنه لا يعطى أية تحديدات زمنية على وجه التقريب ولا يعطى أية إشارة تاريخية تقريبًا، مما يجعل من شبه المستحيل وضع هذه الأنباء داخل مكانها فى التاريخ بدون الرجوع إلى مصادر خارجية، كما لا يوفر القرآن إلا عددًا محدودًا للغاية من الروايات المتصلة. تتوزع الروايات المتعلقة بمعظم الشخصيات المذكورة فى القرآن على النص باتساعه، مع إعطاء قليل من التحديد لترتيبهم الزمنى، لا يوفر القصص القرآنى بما يشبه الإطلاق سياقًا تاريخيًا، ويشكل نموذجًا للبدايات الفجائية لصياغات تقذف بالقارئ غائصًا إلى قلب قصة بدأت بدايتها قبل دخوله، مثل ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [ص: ٧١] أو ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ [آل عمران: ٣٥] أو ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤] وعلى الرغم من أن هذا التجاهل للتفصيل الزمنى قد يعلى من جاذبية السرد الخالى من قيود الزمن، ويجعل من السهل على القارئ الارتباط مع الشخصيات الرئيسية بها، فإن ذلك يجعل أيضًا من توجيه النقد التاريخى أمرًا صعبًا. وما يجعل ما سبق أكثر صعوبة هو إصرار القرآن فى العديد من مواضعه على استخدام الرمزية، لكنه فى الوقت نفسه لا يجعل من المتاح الحصول على

وسائل ملموسة وسريعة يمكن بها أن نقرر بالضبط ما هى الآيات ذات القصص الرمزى وما هى الآيات الأخرى، على الرغم من تأكيد القرآن على أن النوعين يقصان الحق. يترك ذلك المجال مفتوحًا لجميع الاحتمالات بأن بعض القصص يستخدم الرمزية لغرض أخلاقى، ومن المؤكد أن كلمات هذه القصص تبدو مؤيدة لهذه الرمزية. تدبر الآيتين التاليتين من قصة آدم: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ** ﴾ [الأعراف: ١١].

﴿ **قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. يوجد انتقال فى الآية [١١] من «أنتم» (خلقناكم... صورناكم) فى الجملتين الأوليين من الآية إلى «آدم» فى الجملة الثالثة من الآية ما يوحى بأن النوع الإنسانى متمثل فى آدم. بالتأكيد فإن الصياغة هنا ليست حرفية، وإلا فإننا سوف نتوصل عن طريق الجملتين الأوليين على أننا قد خلقنا، ثم بعدها أعطيت لنا صورتنا، وتلى ذلك صدور الأمر بالسجود لآدم. أما الآية [١٧٢] فإنها تتحدث عن نفسها، معلنة أن من الصعوبة بمكان الوصول إلى تفسير حرفى لها.

قد تعطى قصة ذى القرنين فى سورة الكهف مثالاً آخر على القصص الرمزى. تقول الآية ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا** ﴾ [الكهف: ٨٦].

أدت هذه الآية منذ زمن بعيد إلى إرباك العديد من المفسرين المسلمين الذين نقبوا عن تاريخ نبى غاز عظيم وصل إلى أراض بعيدة، حيث تشرق الشمس وحيث تغرب. وحدد العديد منهم ذا القرنين بأنه الإسكندر الأكبر، وهو أمر مشكوك فيه حيث يعرف الأخير بوصفه وثنيًا. علاوة على ذلك فإن وصف وصوله إلى مكان حيث تغرب الشمس فى عين من الطين يعيش حولها أناس قد يشير إلى الطبيعة المجازية للآية.

تركتنى دراستى لقصص القرآن واقفًا فى الموضع نفسه تقريبًا؛ حيث بدأت غير قادر على القول بثقة مطلقة بأى منها التاريخى الخالص، وأى الذى يحمل الطبيعة الرمزية منها. مع ذلك، لم تتملكنى الحيرة نتيجة ذلك. لقد جعلنى ذلك أشعر بأن

حدسى الأصلى المتعلق بأن هذه الروايات الملحمية ذات النضال الأخلاقى والروحى صحيحة على الأرجح، وأنه ليس الهدف الرئيسى منها هو الأثر التاريخى بل هو نقل الحقائق الأساسية والجوهرية.

يجعل القرآن من ذلك غاية فى الوضوح فى سورة الكهف نفسها حيث ينصح القارئ بعدم الالتفات إلى الجادلات التى لا طائل من ورائها حول التفاصيل الدقيقة للقصص..

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٢].

عقب ذلك وبعد آيتين اعتراضيتين ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]. يختم القرآن انتقاده لهذا النوع من التكهن العشوائى بهذه الملاحظة: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٥، ٢٦].

المسألة هنا تعنى أن الاهتمام بالأمور الصغيرة التى حول هذه الأمور يتعارض مع الهدف والأسلوب الخاصين بهذه القصص.

تؤدى حقيقة أن القصص القرآنى ليس للتأريخ - بكل وضوح وجلاء - إلى أن القرآن يتعمد إحاطة تاريخية القصص بالغموض مما يسير فى عكس تيار الميل الإنسانى الطبيعى ناحية إضفاء التاريخية على هذه القصص. دفع ذلك بعض المستشرقين إلى التخمين بأن الأسلوب القصصى غير التاريخى للقرآن يعكس سيادة الثقافة الشفهية التى نبع منها، وبأنه غالبًا ما تهمل التفاصيل الزمنية فى مثل هذه البيئة، لكن يوفر الكتاب المقدس وكذلك الحديث النبوى مثالين صارخين على النقيض لهذه الفرضية. أما بالنسبة لى على الأقل فإن طريقة القصص القرآنى هى

علامة أخرى على عبقريته وحنكته الرفيعة، حيث يقدم القصص بأسلوب لا يؤدى إلى الطعن فيه بافتراضات قرائه الأوائل الذين يختلط التاريخ والأسطورة والشعر والرواية الرمزية بشكل كبير بالنسبة إليهم، ولا أناس فى زمن متأخر ذوى شك متزايد فى الزمن ويتعمدون التمييز بينهما.

* * *

السؤال الثانى: (من مسلم أمريكى - طالب جامعى).

«لقد سمعت أنك تحولت إلى الإسلام بعد أن قرأت القرآن، وأنا أتساءل أكانت الآيات فى القرآن هى التى أقنعتك بصدق الإسلام؟

وبوصفك عالمًا فى الرياضيات، فهل اكتشفت أية معجزات رياضية داخل القرآن أدت إلى إقناعك؟».

* * *

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠، ٣٣].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٢، ٢٢].

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣].

مثلما أوضحت فى الإجابة السابقة، فلم أكن أنشد فى قراءتى الأولى للقرآن البحث عن بيان ما يتوافق مع العلم الحديث أو يتعارض معه. لم أكن فى ذلك الوقت من المؤمنين - حتى بالله - ولم أتوقع من النص، مع كونه من مصادر قديمة، أن يكون على توافق تام مع الوضع الحالى للمعرفة العلمية. بدلاً من ذلك انصب تركيزى على استخراج المعنى الذى ربطه القرآن بالوجود الإنسانى. أثناء دأبى على البحث عن ذلك اكتشفت أشياء أخرى فى القرآن دفعتنى إلى وضع إلحادى فى موضع التساؤل، وذلك ما قاد فى الجانب الأكبر إلى تحولى للإسلام. مع ذلك فقد أثار بالفعل اهتمامى بعض تأكيدات القرآن على عجائب الطبيعة التى يصفها القرآن بوصف «آيات» مثل تلك التى وضعتها فى أول الفقرة والتى تذكر أن السماوات والأرض كانتا ملتحمتين، وأن كل كائن حى خلق من الماء، وأن الشمس والقمر يدوران فى مدارات دائرية، وتلك التى تصف الأطوار الجنينية فيما قبل الولادة للبشر. لم تبرهن هذه التأكيدات شيئًا لى فى الواقع بسبب أن الصياغة اللفظية لها تنحو فى بعض الأحيان ناحية الإلغاز المبهم متجنبة درجة ما من الوضوح الذى يجبر على التوصل إلى خلاصة بأنها تتفق مع الاكتشافات الحديثة، لكنها بالفعل قد اجتذبت اهتمامى. هناك بعض من البيانات فى القرآن قد تتعرض بالتأكيد للتساؤل من جانب العلماء المعاصرين (وعلى سبيل المثال، أن «آدم» هو أبو الجنس البشرى، وأن «نوحًا» قد عاش حوالى ١٠٠٠ عام)، لكننى لم أنظر إليها إلا من الجانب القصصى، وليس من ضمن الآيات العلميّة. وتأسيسًا على ما دونته من قبل حول القصص والرواية الرمزية فى القرآن، كان من الواضح لدى أنه لم يكن الهدف من تلك الأمور أن تعامل بوصفها تاريخًا.

لم أطّلع على أية معجزات ذات طبيعة رياضية عند اطّلاعى الأول على القرآن. مع ذلك، لم أستطع القول إننى قد تملكتنى الرهبة والخوف من العبقرى الذى أتى بالقرآن. إن دقة القرآن الرائعة إضافة إلى تعبيره الموجز يقودان إلى منطق يجل عن الوصف. تشير حكمته المتعالية والتى تتجلى داخل معظم صياغاته الرفيعة الإتقان

إلى معرفة تتجاوز أية خبرة حياتية لإنسان. إن مقدرة القرآن على الوصول بنفس الكلمات إلى كل من المتعلم والأمى وجعلهما يرفعان راية الخضوع لندائه، لا يمكن لها إلا أن تتأتى من فهم عميق للنفس الإنسانية. شعرت أثناء قراءتى للقرآن بأننى فى حال من التعلم المستديم الذى أخذ بيدى مرتفعًا إلى آفاق فكرية أعلى وأعلى تتعلق بالحياة وبالإنسانية، وحول العقلانية والروحانية - وعلى الرغم من ذلك فلم أقبل إطاره المركزى فيما يتعلق بوجود الله.

عندما دخلت فى الإسلام فى عام ١٩٨٢م، كانت جماعة المسلمين الأمريكيين منغمسة فى دراسة الآيات القرآنية. كانت أعداد ضخمة متداولة من الأعمال المنشورة حول التطابق بين آيات القرآن وبين العلم الحديث، كذلك سيطرت المحاضرات المتعلقة بذلك الموضوع على مجهودات هداية الآخرين التى يقوم بها المسلمون. وشعر الكثير من المؤمنين بأن هذه المعلومات سوف تقود بالتأكيد إلى إقناع الأمريكيين بصدق الإسلام وصحته. أدت هذه الموجة الحماسية للبرهنة على الأصل الإلهى للنص القرآنى من خلال العلم إلى فتح الطريق أمام التوجه إلى رؤية القرآن والنظر إليه بوصفه حاويًا لكل مكتشفات ونظريات العلم الحديث على وجه التقريب. كان العديد من تلك الدراسات متكفلة وبعيدة الاحتمال على أن تؤخذ بجدية - ولسوء الحظ - بسبب ميلها إلى حجب بعض الأبحاث الأخرى ذات المصداقية العالية داخل هذا المجال. يظل العمل الذى أصدره «موريس بوكاى» بعنوان «الكتاب المقدس والقرآن والعلم» هو العمل الأبرز باللغة الإنجليزية عن الآيات القرآنية. بالنسبة إلى فإن واحدة من أهم الآيات المقنعة ليست إلا حقيقة أن لا واحدة من هذه الآيات تتناقض أو تتعارض مع ما أرسى العلم الخاص بأيامنا هذه دعائمه بما لا يرقى إليه شك حتى بالرغم من أنهم يشيرون إلى مدى هائل الاتساع من الظواهر، ورغم التعدد الهائل للعقائد الخاطئة، حول أعمال الطبيعة والتى كانت منتشرة فى زمن الرسول ولعدة قرون بعد ذلك. وعلى الرغم من أننى لم أمعن النظر فى آيات القرآن العلمية خلال قراءتى الأولى، فقد أوليتهم اهتمامًا شديدًا فى قراءاتى المتعاقبة، وأصبحوا يمثلون لقرارى بالتحول إلى الإسلام مزيدًا من التأييد.

السؤال الثالث : (من أمريكى متحول إلى الإسلام فى أواخر العشرينيات من العمر)

«لم أقرأ القرآن قبل اعتناقى الإسلام، لكننى أقرأه فى الوقت الحالى. إنه منطقيّا للغاية بشكل عام بالنسبة لى، لكن هناك بعض الأشياء ليست كذلك، وأنا أتساءل إذا كانت هناك أية أمور فى القرآن قد شعرت أنت تجاهها بأنها تتناقض مع العقل، وإذا كان الأمر كذلك فكيف تعاملت أنت معها؟».

* * *

أكون كاذبًا لو أننى قلت لك إننى لم أضع ولا آية واحدة من القرآن فى موضع التساؤل والشك على أسس عقلية، لكن هذه المناسبات كانت قليلة وكان منطقه العام غاية فى الصلابة إلى درجة ظننت معها أن المشكلة ربما تعود إلى التفسير أو إلى الترجمة أكثر من كونها تناقضًا أصليّا مع العقل. ووجدت مع الوقت أن الظن الأول كان هو السبب فيما يتعلق بالآيات التى حدثت معها الصعوبة.

من المهم أن نميز بين تناقض مع العقل وبين تناقض مع عواطف شخصية. تبدو لى العقوبات القرآنية لأول وهلة فى غاية الشدة، لكن الأمر فى ذلك كان ذاتيّا أكثر منه تقييمًا موضوعيّا، وربما يعكس خلفية ليبرالية غربية أكاديمية. من جانب آخر، فى مقدروى أن أرى أن العقوبات قد تساعد على عدم التشجيع على التصرفات التى سنت لمنعها، وبذلك أصبحت متوائمة مع أهدافها؛ لذلك لم أرَ على المستوى الإدراكى تناقضًا منطقيّا بهذا الصدد. لذلك فعندما نتحدث عن تناقضات مع العقل فى القرآن فنحن نشير إلى وصايا داخل النص تتناقض إما مع وصايا أخرى داخل النص وإما مع حقائق ثبت رسوخها. فقد يتألف الصنف الأخير من مكتشفات تاريخية أو علمية لا خلاف عليها، ولكن مثلما أشرت فى إجابتين من قبل، لم يقدر لى رؤية مجادلة قوية أقيمت فى مواجهة القرآن من خلال هذا الإطار.

قد تبدو بعض تأكيدات القرآن بخصوص ما يسميه القرآن الغيب - بمعنى الحقائق المتجاوزة للخبرة والإدراك البشريين مثل الدار الآخرة والجنة والنار، وأفعال الله

وصفاته - عرضة للتساؤلات، لكن ذلك فقط إذا أخذت بحرفيتها. مع ذلك، لا يشجع القرآن على ذلك، وبأساليب متعددة.

نجد فى أوائل السورة الثانية من القرآن دفاعه عن استخدامه للرمزيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

ومن الجدير بالذكر إتيان هذه الآية على الفور عقب وصف للجنات التى تنتظر المخلصين المؤمنين فى الحياة الآخرة ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]، وهو وصف يتوافق على وجه الخصوص مع عرب القرن السابع. من اللافت للنظر أيضًا ورود هذه الآية ضمن الآيات التسع والعشرين الأولى من السورة الثانية والتى تمثل الموجز لموضوعات القرآن الرئيسية.

يؤكد القرآن بعدها فى السورة الثالثة على أنه يستخدم من حين لآخر لغة رمزية، ويحذر هؤلاء الذين يسعون إلى التقليل من أهميتها عن طريق تحديد معانٍ حرفية لآياتها الرمزية:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

هناك أيضًا تلك الإشارة المثيرة للاهتمام إلى معركة بدر، حيث أوقع المسلمون الأضعف عتادًا والأقل عددًا الهزيمة بمضطهديهم السابقين. يبدو الأمر هنا بأن الوحى الإلهى يعلن بعدم الأخذ به حرفيًا على الدوام:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩- ١٠]

توجد توجيهات أخرى مشابهة فى القرآن، مثل الإعلان التالى المتعلق بالوصف البيانى للنار وبالتهديد بالعقوبة التى ستلحق بالمكذبين بالإيمان:

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣].

علاوة على ذلك، يستخدم القرآن من حين إلى آخر عبارة «مثل... أمثال... كذا» (عن الجنة والنار وأحوال غير المؤمنين...) عندما يتكلم عن الحقائق التى خارج الخبرة البشرية. وهكذا نقرأ فى السورة الرابعة والعشرين بعد وصف رائع لنور الله ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥].

تجعل مثل هذه التأكيدات الخاصة باستخدام القرآن للرمزية من معظم الاعتراضات العقلية على تصويراته للحقائق الواقعة خارج التجربة البشرية أمرًا غير ذى بال. إضافة إلي ذلك، فإنها تزيد من صعوبة النقد لمثل هذا النوع عن طريق إضافة عبادات مبهمة إلى حد ما إلى هذه النقاشات. إنها تتجنب الالتزام بأى من الجانبين المتعلقين بالتناقضات اللاهوتية المعروفة عن طريق ابتعادها الواضح عن الصياغة بالألفاظ المتعارف عليها، والمثال الجلى على ذلك هو فى مسألة الجبرية.

تجمع معظم الديانات التوحيدية على أن الله يعلم كل شىء، ويقدر على كل شىء. ويشير القرآن أيضًا إلى الأمر نفسه. وعليه فإذا كان الله يعلم المستقبل، فسوف يبدو أنه يتوجب أن يكون المستقبل كيانًا محددًا. ومن ناحية ثانية، إذا كان الأمر كذلك، أفلا يعنى ذلك وجوب التحديد المسبق لمستقبلنا؟

وإذا كان المستقبل مسبق التحديد، أمن العدل أن نصبح مسئولين عن خطايانا؟

بالتأكيد، أن معرفة الله بحدث ليست هى التى تجعله يحدث، كما أن قدرة الله علينا لا تتناقض مع كونه يمدنا بالقدرة على إجراء الاختيارات والقدرة على تنفيذها. لكن القرآن يتجنب الفخ اللاهوتى المتعلق باستخدام كلمات وعبارات تترادف حقيقة مع «الجبرية» و «القدرية» و «المكتوب» عند مناقشته للإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية، حيث يمهد استخدام مثل هذه العبارات لحدوث تناقض منطقى داخل الافتراضات التى لا مهرب منها عن الله.

إن إطار الإشكالية المتعلقة بالجبرية عند إضافتها لله - يكمن فى افتراضها بأن الله موجود «داخل الزمن» مثل حالنا نحن، وأنه حين يحدد المستقبل (جبريًا) - فإنه يحدده فى «زمن مسبق». من ناحية أخرى، إذا كان الله متعاليًا ومتجاوزًا لخلقه -والقرآن يشير إلى أنه كذلك بالفعل فى عديد من الآيات - فهذا يعنى بأن الله غير مقيد بقيود الزمن والمكان التى تحيط بنا نحن، فليس لله مستقبل ولا ماض مثلما هو حالنا، إنه مستقل ومتعال عن الأكوان الزمنية والمكانية التى خلقها، ولا تسرى عليه قيودها. عندما نقول إن الله قد حدد المستقبل مسبقًا، فإن هناك افتراضين متناقضين عن الله يفترضان فى الوقت نفسه، أحدهما: أنه متعال عن الزمن، والآخر: أنه يوجد داخل الزمن. لذلك فمن الخطأ نسبة كلمة «الجبرية» إلى الله؛ حيث إنها تجعل لله موقعًا داخل الزمن، كما تفترض أنه لا يعالج مستقبلنا فقط، ولكن ما هو مستقبل بالنسبة له بالمثل.

هناك تأكيدات فى القرآن حول علم الله التام لما هو من منظورنا يمثل المستقبل، وحول أنه يقدر العديد من الحوادث، لكن الصياغات اللفظية المستخدمة غير شائعة وغير قطعية. ينص القرآن فى بعض الأحيان على أن هذه الأحداث «مكتوبة»[1]، كما لو أنه يقول بأن الحياة على الأرض تشبه الكتاب، وتمثل الأيام التى نحياها على الأرض صفحات ذلك الكتاب، وحيث نساهم فى صفحة واحدة فى كل يوم نحياه، بينما يراها الله فى مجموعها فى الوقت ذاته. لكن القول بأن الأشياء «مكتوبة» من قبل الله هو شىء، والقول بأن الأمور مقدرة سلفًا هو شىء آخر. وبالطبع يمكن لأى أحد أن يفسر هذه الصيغة بهذه الطريقة، لكن لا سبيل إلى البرهنة تأسيسًا على القرآن وحده بأن ذلك هو التفسير الوحيد المقبول. ينحى القرآن مشكلة الجبرية جانبًا عن طريق أسلوبه المتميز وغير المباشر، بينما يمرر بداخله الفكرة المتعلقة بتعالى وشمول علم الله، وبقدرته المطلقة على جميع خلقه.

بالمثل، عندما يؤكد القرآن على خلق كل شىء وفقًا لصنع الله، فإنه يقرر بأن الله يخلق كل شىء بقدر، ونجد هنا موقعًا مناسبًا آخر لاستبدال كلمة (الجبر) أو المكافئ المعروف للكافة، إذا ما كان النص يدعم الجبرية، ولكن للمرة الثانية، فإنه يقدم

(١) [آل عمران: ١٤٥]، [الأنفال: ٦٨]، [الحجر: ٤]، [الحديد: ٢١].

صياغة تعبيرية مبتكرة بدون أن يحدد بالضبط ما هو المقصود منها[1]. وبفعله ذلك فقد فتح السبيل أمام القارئ لكى يفسر العبارة وفقًا لمنظوره ا لمنظورها الفكرى.

استخدام القرآن للعبارات غير التقليدية عند مناقشته للغيب، هو كثير التكرار ويجافى المصادفة، ويبدو غموضه متعمدًا بوضوح فيما يتعلق بالأمور التى تتجاوز الخبرة والفهم البشريين؛ لذلك فإضافة إلى القول بأن القرآن يتضمن آيات لا يمكن التعامل معها حرفيًا، فإن صياغتها اللفظية التى تتسم بالمهارة تجعل التعامل الحرفى معها من الصعوبة بمكان.

هناك مصدر محتمل آخر للتناقض العقلى هو فى قراءة القرآن مترجمًا. ترتبط اللغة ارتباطًا لا ينفصم بالتاريخ والثقافة اللذين تنبع منهما حاملة معها التراث المتميز والبنى الاجتماعية والرؤى الكونية. تحتوى كل لغة على الكثير من الكلمات والتعبيرات التى لا تجد معادلاً أو مكافئًا حقيقيًا لها فى اللغات الأجنبية عنها. لذلك فليست الترجمة على وجه الحقيقة هى تحويل لمجموعة من التعبيرات إلى مجموعة مكافئة من التعبيرات، بل تتضمن استخراج المعانى المركوزة فى ثقافة ما، ثم إظهارها فى ثقافة أخرى مختلفة. المترجم هو مفسر وشارح بشكل جوهرى يتضمن عمله انتقاء معنى وحيد من بين معان محتملة متنوعة، وذلك على طرفى عملية الترجمة. وبغض النظر عن مدى إخلاص وأمانة المترجم وسعة معرفته، فليس فى مقدور الترجمة إلا أن تكون تقريبية. وكلما اتسعت الشقة بين الثقافتين، كلما زادت صعوبة الترجمة بينهما. ويصعب تصور ثقافتين أكثر ابتعادًا عن بعضهما البعض من ثقافتى عرب القرن السابع والغرب المعاصر.

---

(١) [الرعد: ٨]، [الحجر: ٢١]، [المؤمنون: ١٨]، [يس: ٣٨ - ٣٩]، [الشورى: ٢٧]، [الزخرف: ١١]، [القمر: ٤٩ - ٥٠]، [عبس: ١٨ - ١٩]. لقد اخترت هذا المثال الخاص عن استخدام القرآن لصياغات مبهمة فى جزء منه؛ بسبب أننى وجدت أخيرًا أن معظم المسلمين يساوون بين الكلمة العربية («قدر» مع «التحديد المسبق للمآل «الجبرية»)، وحتى بذلك يبدو هذا التفسير شاذًا للغاية فى هذه الآيات. فتح ذلك الطريق أمام النقاش الواسع لقضية الجبر فى القرون الإسلامية الأولى. هذا التفسير الخاص لكلمة «قدر» يمثل موقفًا عقيديًا جامدًا اعتنقه هؤلاء الذين أصبحوا فى الواقع أصحاب التوجه السائد والمسيطر داخل الفكر الإسلامى.

تشتق الكلمات فى اللغة العربية من جذورها. يرتبط بكل جذر معنى أساسى يتعلق بمجمل الكلمات المشتقة من هذا الجذر. هناك واحدة من أولى الأشياء التى يكتشفها دارس اللغة العربية، وهى العدد الكبير للغاية للمعانى المرتبطة بمعظم الكلمات. معظم قوائم الكلمات والمعانى فى قاموس - LANE'S ARABIC ENGLISH LEXICON المنبثقة من جذر ما تمتد لعدد من الصفحات؛ بسبب أن العديد من المصطلحات تتسع للكثير من ظلال المعانى المختلفة. هذا الثراء والحركية فى مجموع مفردات اللغة العربية هو الذى يعطيها الليونة الرحبة، ويجعل منها وسيطًا مثاليًا من أجل الشعر، وهو الفن العربى الساحق منذ التاريخ البعيد.

وقد تذوق العرب على الدوام الجمال الفذ والبلاغة فى القرآن. عليه فليس فى مقدور أية ترجمة إلا أن تكون أدنى كثيرًا من الأصل، بالتأكيد من الجانب الجمالى، ولكن ما هو أكثر أهمية، عند توصيل الرسالة بسبب حتمية تخلى المترجم عن مدى واسع من المعانى المحتملة عند اختياره «للمكافئ» الأجنبى. تقود هذه المسألة إلى الكثير من التناقضات البادية[1]. وفيما يلى مثال من ترجمة «يوسف على» للآية [١٧٩ من سورة الأعراف].

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾
[الأعراف: ١٧٩].

(وضع المترجم العبارة الإنجليزية"HAVE MADE FOR" مقابل كلمة «ذرأنا» عند ترجمة السطر الأول من الآية السابقة، والكلمة الإنجليزية تفيد كما لو كانت الآية تقول «لقد خلقنا لجهنم كثيرًا. . .»).

السطر الأول فى الآية باللغة الإنجليزية، حسب الترجمة، يشير فيما يبدو بالتأكيد إلى أن بعض الناس قد سبق تحديد مآلهم إلى جهنم، باستثناء أن باقى الآية يشير إلى أن هؤلاء الأشخاص قد انتهوا إلى جهنم بسبب تغافلهم عن آيات الله. رغم ذلك، يبدو السطر الافتتاحى وكأنه يدعم مفهوم الجبرية المطلقة. مع ذلك، لا

(١) مثلت هذه المسألة لى شخصيًا المصدر الرئيسى للتناقضات مع العقل.

يضع قاموس هانز ڤير أيّا من هذه المعانى أو أى معنى قريب منها تحت هذا الفعل «ذرأ» فى قوائمه. يبين كتاب"A CONCORDANCE OF THE QURAN" لمؤلفته «كاسيس» بأن فعل «ذرأ» يظهر فى القرآن ست مرات، لكنه فى جميع الأحوال عدا حالة الآية [الأعراف: ١٧٩]، فإنه يقصد به «أن ينثر/ ينشر» أو «يضاعف/ يتكاثر» مما يتوافق مع جذره الأصلى[١]. يضع قاموس "EDWARD LANES MONUMENTAL ARABIC ENGLISH LEXICON" «خلق» فى قائمة الفعل «ذرأ»، لكن ليس بوصفها معنى رئيسيّا، ولم يقدر إلا على الاستشهاد بالتفسيرات التقليدية للآية القرآنية [الأعراف: ١٧٩] بوصفها مثالاً على هذا الاستخدام لهذا المعنى. لذلك يبدو على الأغلب أن هذا المعنى لم يكن مرتبطًا بالفعل «ذرأ» فى المراحل الزمنية السابقة على الإسلام، لكنه استخدم لاحقًا فى فترة متأخرة للغاية، وأبان عن التوجهات اللاهوتية لمذاهب فكرية معينة. تشير المصادر الثلاثة إلى أن المعانى الرئيسية المرتبطة بالفعل «ذرأ» هى أقرب إلى «أن ينثر» أو «أن يبعثر» أو «أن ينشر» أو «أن يرش» أو «أن يرمى» أو «أن يبذر» أو «أن يضاعف»، وقد تكون الترجمة الأقرب لطبيعة الآية [الأعراف: ١٧٩] هو أن تترجم «ولقد ذرأنا. . .» إلى "WE HAVE CAST INTO" بمعنى «ولقد طرحنا داخل جهنم. . . . .»، وعلاوة على ذلك تبدأ هذه الجملة من الآية بلفظ «لقد» والتى تعنى أنه فعلاً تم إنجازه، لذلك فلا يبدو على الإطلاق أن هذه الآية تتحدث عن الجبرية، وبخاصة أن سياق هذه الآية والآيات التى تليها مباشرة، تتناول الذين يتعمدون إنكار آيات الله، أو (وحيه) [الأعراف: ١٨٢]. وأنا أجد بالفعل أن ما سبق يعطى مثالاً ممتازًا آخر على أمر يفعله القرآن من حين لآخر، وهذا الأمر هو أنه يشير فى بعض الأحيان إلى أحداث تقع فى الآخرة كما لو كانت حدثت أو تحدث الآن. ويقول المفسرون عن ذلك بأنه أداة من أدوات النحو للتأكيد على حتمية حدوث هذه الأحداث، لكننى أشعر أنها تبين أيضًا وتدعم الفكرة القائلة بأن الله

(١) HANNA E- KASSIS "A CONCORDANCE OF THE QURAN"، مطابع جامعة كاليفورنيا (١٩٨٣م)، ص ٣٧٧. يظهر الفعل أيضًا فى [الأنعام: ١٣٦]، [النحل: ١٣]، [المؤمنون: ٧٩]، [الشورى: ١١]، [الملك: ٢٤].

يتجاوز ويتعالى على الزمن وعلى المكان، وبأن يومنا الآخر يحدث فى طور جديد غاية الجدة.

لقد ناقشت فيما سبق بعض ما أعتقد بأنه أهم المصادر العامة للتناقض المدرك بين القرآن والعقل. وقد وجدت من خلال اتصالاتى العديدة مع المسلمين الأمريكيين الشباب، أن معظم المشاكل التى من هذا النوع تتأتى من التفسير الحرفى المبالغ فيه عند قراءة القرآن، وأيضًا من القيود وعلوم الكمال الطبيعى اللتين تحتمهما عملية الترجمة. لذلك وبغض النظر عن المعرفة التى يحوزها المرء باللغة العربية وبالتاريخ القديم للجزيرة العربية وبثقافتها، وبغض النظر أيضًا عن مدى اتساع أفق المرء على احتمالات الرمزية، فإنه يتوجب علينا أن نكون واعين بالقيود والمحدودية الكامنتين فى بنية جميع لغات البشر عندما نتحدث عن «الغيب»، وبخاصة عند حديثنا عن الله. ومثلما سقنا من قبل فإن اللغة تجد قواعدها داخل الخبرة الإنسانية، لكن حيث إن القرآن غالبًا ما يتكلم عن حقائق تتجاوز هذه الخبرة، فإن جميع اللغات البشرية بما فيها اللغة العربية محدودة فى قدرتها على توصيل تلك الحقائق إلينا. لذلك فبغض النظر عن مدى ما أصبحت عليه نظم الاتصال والتواصل والفلسفات لدينا من رفعة وعراقة، فسوف تبقى هناك على الدوام أسئلة تستعصى على إجابات لدينا. وتلك فى اعتقادى واحدة من المعانى المتضمنة فى الآية التالية:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

***

السؤال الرابع: (لقد تلقيت عددًا يعتد به من الأسئلة من ملحدين غربيين. السؤال التالى من أحد المهنيين الكنديين).

«لا أتذكر على الإطلاق أننى آمنت بالله أو حتى تنسمت إحساسًا باهتًا بأية روحانية ذاتية. على أية حال، فقد وقعت حديثًا فى الحب مع امرأة مسلمة وهى أحبتنى بدورها. إنها تشعر بقوة بأن توقعات وجود مستقبل لعلاقتنا معًا سوف تتعاظم بشدة إذا ما شاركتها إيمانها، لكنها لا تريد منى التحول إلى الإسلام إلا عن

اقتناع مخلص. لقد قرأت كتابك «حتى الملائكة تسأل» وأنا عاكف على قراءة القرآن حاليًا. لدى بعض الأسئلة التى أود توجيهها إليك، لكننى سوف أبدأ من أمر مباشر، وهى أوامر ووصايا القرآن. إننى أجد أن بعض القوانين القرآنية قد تخطاها الزمن، كما أن بعض عقوباته تتميز بالقسوة المفرطة. وبخصوص النقطة الأخيرة، ألم يكن فى وسع الله الرؤية المستقبلية لزمن قادم أكثر حنانًا ورقة؟ إننى أتساءل عما إذا كانت قوانين القرآن قد شكلت عقبة كأداء فى طريق تحولك للإسلام؟».

* * *

لم يكن لأوامر القرآن ونواهيه دور فى قرارى أن أصبح مسلمًا. كان حب الاطّلاع هو دافعى للبداية فى قراءة القرآن، ثم تحول الأمر سريعًا إلى دافع قسرى للبحث عن المعنى الذى يعزوه القرآن للحياة الإنسانية. ما زلت أتذكر مرورى السريع على الآيات التشريعية، حيث ظننت بأنها غير ذات تأثير مباشر فيما يتعلق ببحثى هذا. وأظننى فى الوقت الذى بدأت فيه فى الأخذ بنداءات القرآن الداعية للتوحيد الإلهى بجدية لم أتوقف طويلاً عند أوامره ونواهيه.

لم أكن أيضًا قد تعرفت على العديد من المسلمين وقتها، ولم أكن أعرف كيف يفسر المشرعون المسلمون أو كيف يطبقون هذه الوصايا حول العالم. أنا لا أملك عقلية قانونية، لكن القانون بدا لى على الدوام بوصفه علمًا ذاتيًا. وعلى النقيض من الرياضيات، حيث البرهان الصحيح يتجاوز النزاع والخصومة ولا علاقة له بعواطفك المبدئية، تبدو المجادلات والبراهين فى القانون معتمدة إلى حد كبير على أسلوب التفسير. وأنا أعتقد أن ذلك يشكّل سببًا آخر لكونى لم أعط قسطًا وافرًا من التفكير إلى أوامر ونواهى القرآن التشريعية، حيث إننى لا أملك على وجه التقريب أية معرفة عن نوع استجابة المسلمين المعاصرين لها.

مع ذلك، أصابتنى الدهشة عن مدى دقة العديد من توجيهات القرآن. وبدت أوامره ونواهيه التشريعيتان، واللتان تمثلان ما يوازى ثلاثة فى المائة من مجمل القرآن، ذات تفرد عن الأسلوب الغالب للنص القرآنى. يتجنب القرآن فى أمور أخرى تقييد نفسه بمكان وبزمان محدد بدقة، لكن أوامره فى معظمها تتناول مشاكل

فورية قد واجهها النبى وأتباعه، والعديد منها محدد بظروفه وبيئته المحيطتين به. وغالبًا ما توفر التشريعات القانونية للقرآن مستوى من التوصيف عالى المستوى مع عمومية غير مقيدة. كما يشير الكثير منها إلى ما يخص ثقافة عرب القرن السابع مثل تحديد مواصفات ملابس النساء والتى تصنع من قطع معينة من الثياب التى كانت ترتديها النساء العربيات فى ذلك الوقت ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١]، أو أمره إلى المؤمنين بزيادة أعداد فرسان الخيل عند الاستعداد للقتال ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]. يتضمن القرآن عددًا كبيرًا من الأوامر التى تعتبر عالمية، مثل دعاواه ضد الظلم والقتل والقذف فى حق الآخرين، والغش، والربا، والخمر، والسرقة، والزنا، والإكراه فى الدين. كذلك هناك قوانين أخرى قد تبدو فات أوانها فى معظم المجتمعات المعاصرة إذا ما أخذت حرفيًا، مثل القواعد القرآنية المتعلقة بالرق وبالنساء ملك اليمين، أو القوانين المتعلقة بشكل حصرى بالنبى وبعائلته[1].

وقد تساءلت بالفعل عن سبب الغموض المتعمد فى القرآن فيما يتعلق بالكثير من القضايا، مع شدة التحديد والفنية فيما يتعلق بالقيود القانونية، لماذا لم يوفر بعض القواعد العامة فقط فيما يتعلق بالسلوك شيئًا يشابه الوصايا العشر أو وصايا عظة

(١) [الأحزاب: ٥٠ - ٥٣].

الجبل، والتى يمكن للناس فى جميع العصور والأمكنة الرجوع الفورى لها؟. عندئذ أدركت أننى بتوجيهى هذه الأسئلة كنت ساذجًا.

إن من الجلى أن أحد المهام العاجلة التى كانت أمام القرآن هى إعادة بناء وإصلاح وإضفاء الحركة على عرب القرن السابع. كان مجتمعهم - بالرجوع إلى وثائقهم - يعانى من الجمود والركود عن طريق انتشار الفوضى لغياب الحكم، وكذلك العنف والرذيلة والفساد. ولكى يتحول هذا المجتمع إلى أداة مناسبة لتلقى ذلك الوحى الذى نزل ويبلغه لجميع البشر ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧] كان من الواضح أن على المجتمع أن يتعرض لانقلاب شامل؛ لكى يخلص نفسه من الكثير من عوامل تآكله وعادات تدميره الذاتى، وإلا لظلت رسالة القرآن على الأرجح محصورة داخل جزء من شبه الجزيرة العربية، وربما كان مآلها بعد ذلك إلى النسيان. قد يقدم ذلك تفسيراً جزئيًا للطبيعة الواضحة والفنية لقوانين القرآن، حيث نادرًا ما تقود المواعظ المجردة إلى الإصلاح السريع والشامل[1].

مع ذلك ومن ناحية ثانية، فعلى الرغم من أن معظم أوامر القرآن تستجيب لمشكلات محددة ظهرت داخل سياق تاريخى - ثقافى معين، فإن أصناف المشكلات التى عولجت هى فى الجزء الأعظم منها مشتركة وأساسية بين جميع المجتمعات. يهدف الكثير من قواعدها المتعلقة بالنساء - على سبيل المثال - إلى تحسين أوضاعهن حتى داخل الإطار البالغ التعقيد، وما تولد عنه بالطبيعة من قيود لهذه البيئة الاجتماعية القائمة وقتها. يتيح القرآن للنساء مستوى من الاستقلال المالى، بتحديده لهن نصيبًا مفروضًا من الميراث، لكنه نصف ما للرجال من نصيب ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١] حيث كان الرجال هم المسئولين الأساسيين عن

(١) وفى رأيى، نادرًا ما ينتج عن المواعظ العامة إصلاحات اجتماعية حتى على المدى الزمنى الطويل.

الحصول على رزق العائلة ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٢ - ٣٤]. كما أن القرآن يفرض على الرجال مهوراً تدفع للنساء عند الاقتران بهن ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ [النساء: ٤]. وقد دفع القرآن بالنساء إلى داخل عالم المال عن طريق السماح لهن بوصفهن شاهدات على اتفاقيات العمل عالية المستوى، ولكن بسبب أنهن كن غير عليمات فى هذه الأمور بشكل عام، فقد تطلب الأمر اثنتين من النساء فى محل شاهد واحد من الرجال: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] قرر القرآن قوانين مفصلة للطلاق من أجل التأكيد على ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] مع ذلك، وحيث يتوجب على النسوة المطلقات المسلمات على النقيض من أزواجهن السابقين، أن ينتظرن لما يقارب الأشهر الثلاثة قبل أن يتزوجن من جديد، وذلك من أجل تحديد الأبوة المحتملة، فالقرآن يقر بأن ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨][1]. أقام القرآن تشريعات تحارب الاستغلال والتحرش الجنسيين عن طريق حث الرجال والنساء على أن «يغضوا من أبصارهم» عند النظر إلى الجنس الآخر، وأن ترتدى النساء ملابسها بشكل محتشم ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ

(١) أيضًا ومثلما ذكرنا من قبل، فعادة ما يتلقى الذكر نصيبًا أكبر من الميراث.

لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١].

بالمثل، فإن القواعد القرآنية المتعلقة بالرق، والتى توجب لها أن تكون قد استأصلت هذه المؤسسة فى وقت السلم[١]، فينبغى لها فى الأزمنة الحديثة أن تقود إلى الحماية ضد استغلال العمال وإساءة استخدامهم. كما تشير فريضة الزكاة إلى الثروة المدخرة التى تؤخذ من أجل مد يد العون للمحتاجين إلى أنه يتوجب على المجتمع العمل على ضمان رفاهية مواطنيه[٢].

وفى استجابة لزيادة عدد الأرامل وعدد الأطفال الذين فقدوا آباءهم داخل مجتمع المسلمين المبكر - فيما لا يختلف عن مشكلة الأمهات الوحيدات والتى فى حاجة ماسة للالتفات إليها فى أيامنا هذه - فقد شجع القرآن الرجال على الزواج من الأرامل من أجل توفير الدعم العاطفى والمالى لهن ولأولادهن، لكنه حدد عدد الزوجات الإجمالى لرجل فى الوقت نفسه بأربع زوجات ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣][٣]. كما واجه الغش فى الأعمال عن طريق الأمر بكتابة العقود عند عقد الاتفاقات المالية، وكذلك التعليمات التفصيلية المتعلقة بكيفية صياغتها، مما يتضمن مختلف أنواع الحماية للطرف الأضعف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب

---

(١) سمح القرآن فقط بأخذ أسرى الحرب بوصفهم عبيدًا، [محمد: ٤]، مقررًا إعتاق الرقاب بوصفه تكفيرًا عن العديد من الخطايا الشائعة [البقرة: ١٧٧]، [النساء: ٩٢]، [المائدة: ٨٩]، [المجادلة: ٣]، [البلد: ١٣]، كما وفر للعبيد الوسائل القانونية المؤدية لشراء حرياتهم [النور: ٣٣]. ومع شديد الأسى جاءت الأمم الإسلامية فى المؤخرة فى مجال القضاء على العبودية على المستوى التشريعى.

(٢) [البقرة: ٤٣-١١٠-١٧٧-٢٢٧]، [النساء: ١٦٢].

(٣) من الواضح عدم وجود قيد على عدد زوجات الرجل العربى قبل نزول القرآن.

بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢ - ٢٨٣]. يشتمل القرآن على تعاليم تتعلق بالحروب والقتال، وهى تمنع العدوان الحربى وتسمح فقط بالقتال من أجل الدفاع عن النفس ولمحاربة الظلم[1]. كما يتضمن عدداً من الوصايا المتعلقة بشكل الدولة - وهى شىء لم يعهده العرب القدامى من قبل - مما يؤكد على احترام القيادة واحترام حقوق الآخرين، واحترام القانون، وأن تتخذ قرارات الجماعة من خلال الشورى. كما عالج القرآن مشاكل المخدرات والمقامرة من خلال حظره للخمور وللميسر، مبينًا ذلك بقوله ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

وفى حين تتجاوب أحكام القرآن مع المشاكل العاجلة لمجتمع المسلمين المبكر، فإن معظم تلك المشاكل التى تتعرض لها موجودة داخل أى مجتمع. تلقى مثل هذه القضايا فى الواقع اهتمام كل ثقافة مثل الظلم الموجه للمرأة، واستغلال الطبقة العاملة، والرفاهية الاجتماعية، والأمهات بغير أزواج، والأطفال المشردين، والحرية الدينية، وصفقات الأعمال المغشوشة، والحرب العادلة، وتنظيم الدولة،

---

(١) [البقرة: ١٩٠ - ١٩٣]، [النساء: ٩١]، [الأنفال: ٦١]، [الحج: ٣٩ - ٤٤]، انظر أيضًا نقاشات المؤلف فى عمله "STRUGGLING TO SURRENDER" منشورات AMANA ص ١٨٣ - ١٩٠، وعمله «حتى الملائكة تسأل» - ط مكتبة الشروق الدولية ص ١٨٥.

وإدمان تعاطى المخدرات من أجل الترفية، والقمار، والدعارة، والقذف وتشويه السمعة. لذلك، توفر تشريعات القرآن وسائل الإصلاح داخل سياق تاريخى معين، إلى جانب أنها قد تستخدم أيضًا بوصفها أمثلة عملية أو نماذج ينبغى تعميمها على سياقات أخرى.

عندما يقدم القرآن حكمًا، فليس من الصعب فى العادة أن نميز هدفًا عامًا يكمن خلفه. وحين لا يكون الأمر كذلك، فغالبًا ما تجد تفسيرًا للهدف الأسمى لهذا الحكم؛ لذلك فإن الأمر إلى المرأة المؤمنة بإسدال أغطية رءوسهن (الخمار) على صدورهن ينتمى إلى آية تبتغى الحشمة ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١]، وعندما يأمر المؤمنين بمضاعفة أعداد خيولهم عند الاستعداد للقتال ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فإن القرآن يصرح بأن ذلك سوف ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ مما يقود إلى ردع عسكرى. ويقدم النص القرآنى تفسيرًا، عقب تحديده للفرق بين ما يرثه الرجل وما ترثه المرأة، بأنه بسبب ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ

أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً﴾ [النساء: ٣٢ - ٣٤].

ومن أجل ذلك، فإذا مثلت أحكام القرآن وأوامره بعض الأهداف والقواعد الأساسية للقانون، فكذلك قد يبدو أنها قد هدفت إلى أن تكون عرضة وقابلة للمتغيرات المرتبطة بالزمان، وهو ما سوف يحدث بكل تأكيد. وقد اكتشفت عقب تحولى إلى الإسلام، أن العديد من فقهاء المسلمين يقبلون بهذه النظرة من حيث المبدأ، لكنهم متحفظون لأقصى مدى فى تطبيق هذه النظرة. وهم عندما يقيسون على أمر أو يجعلونه قابلاً لمتغيرات الزمان والمكان، فإنهم يتوجهون عند ذلك فى معظم الأحيان وجهة التشديد المبالغ فيه. الفكر السائد فى أوساط المسلمين ينحو ناحية أنه من الأفضل والأسلم الانحياز إلى جانب التشدد، وليس فى مقدورى القول بأننى أشاركهم الشعور نفسه.

وفى النهاية أختم ببعض الخواطر المختصرة فيما يتعلق بإنسانية أزماننا الحالية وتجاه العقوبات القرآنية. أنا لست على اقتناع بأن الفترة الزمنية التى نعيش فيها هى أكثر رقة وعطفًا من تلك التى أوحى خلالها القرآن. ويستحق القرن الماضى بأن يكون أكثر الأزمنة المسجلة عنفًا ودموية. قد يبدو مكانًا يتسم بالعاطفية بالنظر إليه من موقعى خلف ستار الحرم الآمن والمتسم بالهدوء والصفاء لكليتى الجامعية، لكن الأمر يختلف فى شوارع المدن الداخلية الأمريكية، حيث مرتع الشر، أو فى الأماكن العديدة الأخرى بطول العالم وعرضه، حيث تمثل مواجهة العنف البالغ ومواجهة الظلم جزءًا روتينيًا من الحياة اليومية.

وبينما أنه من الصحيح أيضًا أن بعض عقوبات القرآن ليست متناغمة مع الحساسيات الغربية المعاصرة، فليست العواطف والمشاعر الغربية المعاصرة هى المعيار الموضوعى الذى يقاس به مجمل إنسانية نظام اجتماعى ما. يستخدم كل نظام اجتماعى العقوبات من أجل ردع الأفعال التى يراها إجرامية، ومن المفترض أنه يناضل من أجل الموازنة بين الحاجة لعدم الإفراط فى العقوبة وبين الحاجة لحماية

الأبرياء. وقد يبدو أن النظام القانونى المثالى هو الذى سيصدر عنه الحد الأدنى من المعاناة الإنسانية الشاملة التى سيعانى منها ضحايا الإجرام وكذلك المجرمون عند إنزال العقوبات بهم[1]. إذا كان فى مقدورنا - على سبيل المثال - سن قانون يستأصل الجريمة بشكل كامل ولا يتسبب فى أية معاناة أو مشقة للناس، فسيكون ذلك أفضل المتاح بغض النظر عن مواد العقوبات الخاصة به، حيث لن يعانى أى شخص من تبعات الجريمة. وحيث إنه ليس فى مقدور أى نظام قانونى أن يستأصل الجريمة، ولا وجود لأداة لقياس إجمالى المعانى الإنسانية، يؤمن المسلمون بأن مجتمعًا هو الأكثر قربًا لظهور القوانين القرآنية وروحها، سيكون المجتمع الأكثر إنسانية من وجهة النظر الكلية الشمول. وبالطبع، فإن الاقتناع بذلك هو شىء، وأما الإتيان بمثل هذا المجتمع إلى عالم الوجود هو شىء آخر، لكن ذلك يعود بنا مرة أخرى إلى مشكلة تفسير القرآن.

(١) لو وجدت بعض وسائل القياس والمعايرة الصحيحة لتقدير المعاناة الإنسانية، ثم نقسم حاصل جمع المعاناة الإنسانية الناتجة من كل من الجريمة وكذلك من عقوبات المجرمين، على مقدار التعداد السكانى للمجتمع، فقد يمثل ذلك مؤشرًا جيدًا لتقييم مجمل إنسانية نظام قانونى ما.